



فضيحة الغفران

حينما توضع النعمة تحت الاختبار

فيليب يانسي

ترجمة: د. أوسم وصفي



ophir

The Scandal of Forgiveness

Originally published in English by The Zondervan Corporation L.L.C. a subsidiary of HarperCollins Christian Publishing, Inc. under the title:

The Scandal of Forgiveness by Philip Yancey.

Copyright © 2021 by Philip Yancey.

Arabic Edition Copyright © 2022 by **Ophir Printers & Publishers.**

Published by arrangement with The Zondervan Corporation L.L.C. a subsidiary of HarperCollins Christian Publishing, Inc.

All rights reserved. No portion of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means – electronic, mechanical, photocopy, recording or any other – except for brief quotations in printed reviews, without prior permission of the publisher.

فضيحة الغفران

الطبعة العربية الأولى ٢٠٢٢م

حقوق الطبع محفوظة

أوفير للطباعة والنشر

ص.ب. ٣٠٦٢، عمّان ١١١٨١، الأردن

هاتف: +٩٦٢ ٦ ٤٦٣ ٣٣٨١

Email: info@ophir.com.jo

www.ophir.com.jo

ISBN 978-90-5950-287-1

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقلها، أو استنساخه بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

المحتويات

٧	الفصل الأول: التحرُّر
١٩	الفصل الثاني: الأب المريض حبًّا
٣٥	الفصل الثالث: النعمة وحساباتها الجديدة
٥٣	الفصل الرابع: السلسلة التي لا تنقطع
٦٥	الفصل الخامس: العمل غير الطبيعيّ
٨٧	الفصل السادس: لماذا نغفر؟
١١٣	الفصل السابع: تسوية الحساب
١٣٩	الفصل الثامن: ترسانة النعمة
١٧٣	الفصل التاسع: المسيحيُّ المملوء بالنعمة
١٧٩	لمحة عن الكاتب ومؤلفاته

الفصل الأوّل

التحرُّر

يعيش صديقي مارك في بيته في إحدى الضواحي التي تسكنها الطبقة الوسطى مع زوجته وابنيها المراهقين. وذات يوم، كان مارك يُناقش مع زوجته ما إذا كان الوقت قد حان لكي يريحا قَطَّها المسنَّ ويُنهاي حياته. ويبدو أن زوجة مارك قالت شيئاً مسَّ عصباً مكشوفاً لديه، فوجد نفسه يصيح في وجهها بشدّة. ولكونها شعرت بالتهديد بسبب غضبه الحادّ هذا، مدّت يدها إلى الهاتف الأرضي وطلّبت النجدة على الرقم ٩١١. وبسرعة أمسك مارك بالهاتف من يدها، ونزع القابس من الجدار، واندفع خارجاً من الغرفة وهو لا يزال غاضباً، ظاناً أن الموقف انتهى. لكنّ لم يمضِ وقتٌ طويل حتّى دقَّ جرس الباب.

فتح مارك الباب الخارجيّ وهو يرتدي سرواله الداخليّ وتي-شيرت خفيفاً ليجد أمامه ضابطين باللبّاس الرسميّ. لقد استطاع مركز النجدة أن يحدّد مكان المكالمة التي انقطعت، وبلّغ قسم

الشرطة التابع لها باحتمال وجود حالةٍ طارئةٍ في ذلك المكان. حاولَ مارك أن يشرحَ للضابطينَ أنَّ كلَّ شيءٍ على ما يرام، وأنَّ كلَّ ما في الأمر أن خلافاً عادياً زادت حدُّتهُ بعض الشيء، لكنَّ الشرطةَ أخبرته أنَّ لديهم نظاماً صارماً بشأن التعامل مع العُنف الأَسْرِيّ المحتمل. وهكذا؛ وتحت أنظار الجيران وفضولهم، وضعَ الضابطان الأصفاد حول معصميه، واقتاده بملابسه الداخليَّة إلى سيَّارة الشرطة حيث أمضى ليلته في الحبس. وفي الصباح التالي، دفعَ والده الكفالةَ لإطلاق سراحه.

وفي النهاية، حُكِمَ على صديقي، الذي تعرَّضَ لذلك الموقف المذلِّ، بالانخراط مدَّة أربعة عشر أسبوعاً في برنامج لإدارة الغضب. وفي هذا البرنامج وجدَ مارك نفسه في الغرفة نفسها مع معتدين متكرَّرين كانوا قد عبَّروا عن غَضَبهم بقبضاتِ أيديهم وليس فقط بالكلام. وعندما قالت السيِّدة التي تدير البرنامج: ”أوَّل واجبٍ عليكم القيام به أن تكتبوا اعتذاراً للشخص الذي تسبَّبتم في إيذائه“، أمسكَ مارك بقلم وورقة أخذهما من السيِّدة، وعادَ إلى مقعده، ناظرًا حوله ليجدَ أنَّه الوحيد الذي وافقَ أن يفعل ما طلبته السيِّدة، أمَّا الرِّجال الآخرون فكانوا يحمِلون فيه ساخطين.

عندما انتهى مارك من كتابة اعتذاره، شكرته السيِّدة، وقلَّتْ مدَّة عقوبته. وحتى بعد ذلك، لم يحدِّ حذوه أيُّ من أولئك الرِّجال، حتَّى إنَّ أحدهم قال: ”على جُستِّي“، وأوماً الآخرون بالموافقة.

تطلَّب الأمرُ شهوْرًا عدَّةً من مارك قبل تمكُّنه من استعادةِ ثقةِ زوجته. وقد حكى لي هذه القِصَّة التي كان يرويها لأصدقائه المُقرَّين في إطار مجهوده للتَّغيير؛ فقد كشفت تلك القِصَّة حقيقةً مشكلته مع الغضب. «كان أوَّل ردِّ فعلٍ غريزيٍّ عندي هو أن أتجاهل ما حدث كأنَّه مبالغةٌ سخيفةٌ في التعبير عن خلافٍ زوجيٍّ عاديٍّ. لكنِّي الآن أرى كيف تسبَّبتُ في أذيةِ زوجتي إيذاءً بالغاً. وإذا لم أواجه هذه الحقيقة القبيحة بشأني، وأعوِّضُ بأمانة، فقد لا أنالُ غفرانها بتاتاً- ذلك الغفران الذي أحتاجُ إليه كي أستردُّ أسرتي».

وما قاله بعد ذلك ظلَّ معي لوقتٍ طويل: «لستُ أعلم أيُّها أصعب: أن أعتذر لزوجتي، أم أن تغفر لي زوجتي». الفعلان يسيران عكسَ كلِّ غرائزنا لحماية الذات. من ناحية، إذا فعلنا أمرًا خاطئًا، فإنَّنا نميل إلى تعليل أخطائنا وكأَنَّها لم تحدث، أو نلومُ الطرفَ الآخر، أو نشدُّ على مئةٍ سببٍ نفسيٍّ دفعنَّا إلى ارتكاب ما فعلناه. أمَّا إذا كنَّا الطرفَ الذي وقعَ في حَقِّه الأذى، فإنَّنا نميلُ لأنْ نحتضنَ جروحنا، ونختزنَ استياءاتنا، ونُصرُّ على نوعٍ من ردِّ الاعتبار.

إنَّ صراعاً مثل صراع مارك يربط الطرفين بقوَّة تكادُ تكون هي المضادَّة للمحبَّة - قوَّة تدفعُ بكلِّ منهما بعيداً من الآخر. وعلى جانبيِّ المواجهة، يرتفع جدارٌ من حماية النفس. وكما لو كانت الإهانة تُضاف إلى الجرح، فإنَّ الجانبَ الذي يغفر، والذي تلقى الإساءة، هو القادر على تفكيك هذا الجدار. يمكن أن يكتبَ مارك اعتذاراً

كلَّ يوم، لكنَّ زوجته وحدها هي التي تملك مفتاحَ استردادِ العلاقة. يكتب سي. أس. لويس في كتاب "المسيحية المجردة"^١: "الجميع يقولون إنَّ الغفرانَ أمرٌ محبَّب، وذلك إلى أن يكونَ لديهم ما يغفرونه". في الحقيقة، نحنُ كلُّنا لدينا ما نغفره؛ لأنَّ البشر بالتأكيد سيُحبطوننا. الآباء والأمَّهات الذين يُخطئون في تربيتنا، والأصدقاء الذين يتعدون، والزوج الذي يضايقك، أو الزوجة التي تُصيبك بالحيرة، أو ذلك العضو في كنيستك الذي يظُلُّ يدينك - لا أحدٌ يُحبُّ محبةً كاملة، ولا أحدٌ يسدُّ بالكامل حاجتنا إلى القبول الذي نشتاقُ إليه. تتابُّ كلَّ العلاقات أوقاتٌ من الإحباط، وأحياناً الخيانة.

يمكن أن يُحبطنا الآخرون، لكنَّ المرارة الناتجة هي شيءٌ نحن من نميِّه في أنفسنا. ويمثِّل الغفرانُ العلاجَ الوحيد.

في الصفحات التالية، ستُصادفُ قصصاً عن الغفران سارت سيراً حسناً، واستمرَّ الغفرانُ مهما كلفَ الثمن. قصصٌ لأناس تستطيع القولُ إنَّهم اجتازوا اختبارَ النعمة، وآخرون رَسبوا فيه. الكلفة عالية، ويمكن أن تمتدَّ الأحقادُ لأجيالٍ متتاليةٍ مُقيمةً عداوةً ما بين الأسر، بل ربَّما ما بين الأمم.

وفي مُفارقة قاسية، فإنَّ الطاقة السلبيةَ لعدم الغفران تعمل

(١) كتاب "المسيحية المجردة" من منشورات أوفير للطباعة والنشر (الناشر).

على نحوٍ أقوى في الجانب المُساءِ إليه. ويصفُ الأسقف ديزموند توتو (Desmond Tutu)، وهو أستاذ متخصص في الغفران، عملية الغفران على النحو الآتي:

”أن تغفر فهذا ليس فقط أن تتمتع بالإيثار. في تصوُّري، يُعدُّ الغفرانُ أفضل شكلٍ من أشكال تَبْنِي المصلحة الذاتية. ولا تُنكرُ عمليةُ الغفران حقيقة الكراهية والغضب؛ فهذه المشاعر أجزاءٌ لا تتجزأ من الطبيعة الإنسانية. عندما أتكلَّم عن الغفران، فأعني القدرة على التخلِّي عن الحقِّ في الانتقام، والتحرُّر من قيود العنف والثورة التي تربط بينك وبين الإنسان الذي أساءَ إليك. عندما تغفر، فإنَّك تتحرَّر من الكراهية والغضب اللذين يجسانك في حالة الضحية. إذا استطعت أن تَجَدَّ في نفسك القدرة على الغفران، فإنَّك تستطيع أن تتقدَّم إلى الأمام وتواصل الحياة، بل ربَّما تساعد مرتكبَ الإساءة كي يصبح، هو أيضًا، إنسانًا أفضل.“

في أحد برامج هيئة الإذاعة البريطانية (بي. بي. سي) أُذيع عام ٢٠١٣م، استمعتُ إلى روايةٍ دراميَّة لتلك العملية التي يصفها الأسقف توتو؛ فالرواية تحكي قصَّة ناتاشا كامپوش (Natascha Kampusch)، وهي فتاةٌ نمساويَّةٌ في سنِّ العاشرة، اختطفها في الطريق إلى المدرسة، رجُلٌ في منتصف الثلاثينيات، وحبسها في غرفةٍ مظلمةٍ مثل قبوٍ في العصور الوسطى، تحت

مرأب بيته، واحتفظ بها هناك لثاني سنوات. وبعد مدة كان يخرجها من هذه "الزنزانة" لتطبخ له وتقوم بالواجبات المنزلية، وكل ذلك تحت مراقبة لصيقة، ثم يُعيد حبسها ليلاً في تلك الغرفة المحكّمة. كان أحياناً يضربها بشدةً لئلاّ تتمكن من المشي، وكان في أوقاتٍ أخرى يغتصبها.

عندما استطاعت ناتاشا أخيراً أن تهرب وتلجأ إلى بيت أحد الجيران، كانت في سنّ الثامنة عشرة، وكان وزنها يكاد لا يختلف عن وزنها عندما اختُطفت (لا تزيد على ٤٧ كيلوغراماً). ورغم ذلك العذاب الرهيب، فقد وصلت إلى حالة استطاعت فيها أن تغفر. وكما قالت في هذا البرنامج: "شعرتُ بأنّ عليّ أن أغفر له؛ لأنّه فقط بهذه الطريقة أستطيع أن أدفع تلك السنوات بعيداً مني. لو لم أستطع الغفران، لاستمررتُ مشاعرُ الإحباط والألم والغضب في داخلي، ولأكلني حيّة كل يوم، ولعاشتُ أيضاً هذه التجربة المريرة في مدى الحياة. ولو سمحتُ لهذه التجربة بأن تعيش في داخلي، لانتصر هو في النهاية. لم أُرِد أن تُسمّم الكراهية حياتي؛ لأنّ صدى الكراهية دائماً ما يتردّد في صدر صاحبها".

وبالصراحة المعهودة، للكاتبة آن لاموت (Anne Lamott)، تقول: "إنّ عدم الغفران هو أشبه بتناول سُمّ الفئران وانتظار أن يموت الفأر". وتضيف: "يعني الغفران أنّ الأمر في النهاية صار دون أهميّة لك حتّى إنك لا تهتمّ بالانتقام. لقد انتهى الأمر عندك. ولا يعني هذا بالضرورة أنّك تريد أن تتناول الغداء مع هذا الشخص".

الغفران صعبٌ بما يكفي، حتَّى إذا اعتذَرَ الطرفُ المسيء، كما فعل صديقي مارك. أمَّا في حالة ناتاشا، فإنَّ مُحْتَطِفَهَا لم يُبِدِ آيَةَ علامةٍ على التوبة، بل قتلَ نفسه بالقفز أمام أحد القطارات عندما علم أنَّ الشرطة تطارده. أمَّا ناتاشا، فشعرت بالحاجة لأنَّ تغفرَ له، حاسبةً ذلك وسيلةً تتحرَّر بها من ذلك الماضي المُرعب.

هل يُغفرَ لمن لم يطلُبِ الغفران، ولا اعترفَ بالحاجة إليه؟ إنَّ لدى المسيحيين ذلك المثال المذهل ليسوع المسيح، الذي قال في كلماته على الصليب: "يا أبتاه، اغفرْ لهم، لأنَّهم لا يعلمون ماذا يفعلون". باستخدام أيِّ مقياسٍ معقولٍ للعدالة، تُعدُّ هذه العبارة غير معقولة. جنودٌ فُساءٌ يستهزئون بإنسانٍ بريء، بل يدفون المسامير الطويلة في رِصغيه وقدميه، ويقترون على ثيابه. هل يُغفرُ لمثل هؤلاء؟ هذا المشهد، أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، يُعبِّر عن صعوبة قبول النعمة، التي هي القوَّة الدافعة للغفران.

كان يسوع قد قال لتابعيه مُردِّدًا القانون المعتاد للسلوك الإنساني: "سمعتُم أنَّه قيل، تُحِبُّ قريبك وتُبغضُ عدوك، أمَّا أنا فأقول لكم، أحبُّوا أعداءكم... وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم..." لا شكَّ أنَّ مثل هذه الكلمات تسبَّبت في تعبيراتٍ من الصدمة والحيرة على وجوه سامعيه. وهكذا أعطى يسوع المسيح سريعًا السبب وراء وصيَّته الغريبة تلك: "لكي تكونوا أبناءً أبيكم الذي في السموات. فإنَّه يُشرق شمسُه على الأشرار والصالحين، ويُمطر على الأبرار والظالمين".

وبوصفنا حاملين لصورة الله، فإننا مطالبون بمهمة أن نعلن للعالم عن شخصية الله. لا أستطيع أن أتخيل طريقة أفضل للقيام بذلك من اتباع نموذج يسوع. نحن الذين نستحق غضب الله، استقبلنا من الله محبة. نحن الذين نستحق العقوبة، لنا المغفرة. وإذا كنا نعكس ذلك النمط نفسه في علاقاتنا الإنسانية، فإننا نكشف للعالم صورة الله.

ويقدم اللاهوتي أن. تي. رايت (N. T. Wright) ملاحظة مثيرة للاهتمام: أنه بسبب الغفران الذي صنعه عمل المصالحة الذي أتمه يسوع المسيح، فإن الله أطلق العالم ليس فقط من حمل الذنب، بل أطلق أيضًا نفسه - إن جاز التعبير - من حمل أن عليه أن يكون غاضبًا دائمًا من عالم سار في الاتجاه الخاطئ.



وباستخدام تشبيهات تنبؤ بالحياة، يُعبر العهد القديم عن المدى الواسع لغفران الله، فيقول إن الله يُبعد عنا معاصينا "كبعد المشرق من المغرب" (مزمور ١٠٣: ١٢) وبقدرة غير متاحة للبشر، يمحو هذه المعاصي "ولا يعود يذكرها" (إشعيا ٤٣: ٢٥) ويُعلن الله: "قد محوت كغيم ذنوبك وكسحابة خطاياك" (إشعيا ٤٤: ٢٢). ويصوّر النبي ميخا الله وهو يدوسُ بقدميه آثامنا ويطرحها في أعماق البحر (ميخا ٧: ١٩).

نحن لسنا الله، وليست لدينا القدرة أن نمحو من ذاكرتنا أيَّ شيء كأنه لم يكن. ربِّنا كعملٍ من أعمال الإرادة، أستطيع أن أغفر، لكنني لا أستطيع بسهولة أن أنسى، حتَّى إذا أردتُ ذلك. أستطيع الآن أن أجمع قائمةً بأسماء أشخاصٍ جرحوني وأحبطوني وخانوني، لكنني ما زلت أستطيع، حتَّى بعد أن اجتزتُ خطوات الغفران، أن أستدعي الذكريات المؤلمة والجروح القديمة. تبقى الذكرى في عقلي. وكلِّما طفتُ إلى السطح، وجبَّ عليَّ إحضارها أمام الله طالبًا إليه قدرًا من النعمة الفائقة للطبيعة البشريَّة.

والأمرُ عندنا، نحنُ البشر، أنَّ الغفرانَ لا يمحو الماضي، لكنَّه يفتحُ البابَ أمام مستقبلٍ جديدٍ وذلك عندما يمخُّ الماضي من تسميم المستقبل. إنَّ الغفرانَ يعني قبولَ أنَّ الماضي لا يُمكن تغييره، والثوق بالله من جهةٍ مستقبلٍ أفضل.

أتذكَّرُ صديقي مارك الذي تحرَّرَ أخيرًا لكي يعيشَ زوجًا أكثرَ محبَّةً. وكذا ناتاشا التي نالتَ حرِّيَّةً تتيحُ لها أن تصنَّعَ لنفسِها حياةً جديدةً. أتذكَّرُ أيضًا بطرس، تلميذ يسوع، ذلك الخائن الذي اختاره يسوع لكي "يرعى" خراف السيِّد المسيح. وأتذكَّرُ شاول الطرسوسيِّ، الذين كان في السابق مُطارِدًا للمسيحيِّين المطلوبين من السُّلطات الدينيَّة، والذي أصبحَ لاحقًا حرًّا ليكونَ أعظمَ مُرسلٍ في تاريخ المسيحيَّة.

لا ينبغي أن نكون واهمين بشأن الغفران؛ لأنّه قد يكونُ العملَ
الأصعبَ في العلاقات الإنسانية، وأصعبَ ما يُمكن أن يمارسه البشر.
ومن جهتنا، نحن البشر غير الكاملين في الحياة والحب، فإنَّ الغفرانَ
يقدمُ لنا البديلَ لدائرةٍ مفرغةٍ من المرارة والكراهية والانتقام. لذلك
فهو وحده الذي يمكنُ أن يُحرِّرنا.